الدستور

من تيلي لوميار

- عدد خاص -

الكنيسة تعلنه طوباوياً والسّماء تُهلّل لـ«لبنان الكبير»

العدد 10 | أسبوعيّة | سياسيّة | جامعة | الأحد 26 تموز 2026 | 8 صفحات

منارات طريق في أزمنة الضيق

اليوم ولد لنا طوباوي جديد...

عرفه شعبه، مع بدايات القرن المنصرم، قائداً روحياً ووطنياً رفيعاً؛ وقد أوتي وزنات كثيرة، وأحسن تثميرها؛ فكان كبيراً في مملكة الارض، وبات «عظيماً في ملكوت السماوات».

فصورته التي اِلفها اللبنانيون متصدِّراً احتفال قصر الصنوبر، في الاول من ايلول ١٩٢٠، يوم اعلان « لبنان الكبير»، تصدّرت عصر السبت ٢٥ تموز ٢٠٢٦، احتفال اعلانه طوباوياً في الصرح البطريركي في الديمان، وتتصدّر، منذ اليوم الأحد، مذابح كنائسنا، هنا وفي الانتشار، ليكرّمه المؤمنون، طالبين شفاعته، واستمرار رعايته للبنان الذي اراد، ولمواطنيه الذين ارادهم، واحبهم بدون تمييز... واحبوه.

وانها لغبطة مضاعفة ان يرتقي غبطة الياس الحويك ويبلغ مصاف الطوباويين فالقديسين، بعد سنتين او أقل، من الاحتفاء ببطريرك عظيم آخر، صنع نهضة الكنيسة المارونية، وكتب «تاريخ الأزمنة»، وعمل وعلّم، فاستحق الطوبى... والتطويب.

ولأن تاريخ الأزمنة لم يتوقف مع البطريرك الطوباوي اسطفان الدويهي الأهدني، فقد استمر نابضاً بالحياة والحركة، تفوح منه روحانية قنوبين، وتجعل من رعاته منارات طريق في ازمنة الضيق، التي صنعت مسيرة شعب، وواكبت ولادة وطن... وتستمر

مع الطوباوي اسطفان الدويهي، البطريرك العلّامة، والطوباوي الياس الحويك، البطريرك العلامة، وقبلهما وبعدهما، ذخرت الكنيسة المارونية برعاة حملوا همّ «القطيع الصغير»، وعملوا، قدر ما اتاحت لهم الظروف والصروف، على قيادته « الى المراعي الخصيبة»، اي الى واحات الحرية التي تماهت وهويتهم، وقد تحمّلوا في سبيلها ما لم تواجهه جماعة في الشرق، وربما في العالم، فعاشوا ورعاياهم التقشف والامّحاء، وعانوا مثلهم القلق والاضطهاد، وكانوا لهم كالسراج المضاء في ظلمة التاريخ، ومظالم الازمنة.

لقد تولّى بطاركة الموارنة السبعة والسبعون قيادة أتباع مارون، منذ يوحنا مارون، البطريرك الاول، ومعهم صنعوا تاريخهم، الدائم الاضطراب، وجغرافيتهم، الباحثة دوماً عن الطمأنينة، وموارد العيش.

وكانت القيادة روحيةً، اساساً وجوهراً، قوامها الصلاة والتسليم لمشيئة الرب، وهذا ما جعل منهم رسلاً، وشهوداً، يقيمون في الوجدان الماروني، مثل دانيال الحدشيتي، وارميا الدملصاوي، ويوحنا الجاجي، وشهداء حقيقيين كجبرائيل حجولا، وقديسين غير معلَنين كإرميا العمشيتي؛ ورجال حكمة وحوار كموسى العكاري، وهذا ما جعل من الحويك، «رجل العناية»، طوباوياً، وقد عاش متّكلاً على من دعاه واقامه اباً وراعياً، سلاحه صلاته وتعبّده لمريم، حتى انه يوم ذهب الى روما وباريس للتفاوض بشأن قضية لبنان، لم تفارق انامله مسبحة الوردية، وقد احضرها قبل الملفات والخرائط .

وفي رحلاته الى عواصم القرار، كان الحويك مطمئناً الى مصير قضيته، لأنه صاحب قضية محقة، ستصبح وطناً، وسيتحوّل هذا الوطن « رسالة للشرق كما للغرب»، ولم تكن عبارة « اللّه بيدبر» جواباً دبلوماسيا لسائليه عن المصير، بل كانت اللازمة التي لازمته، ومدّته بقوة التحاور، وحجة الاقناع.

بذخيرة الصلاة هذه، وبالتسليم لمشيئة الرب، جابه هذا البطريرك الشيخ ما اعترض مسيرته حيثما حل، وقد حمل شعبه على الاقتداء به، مصليّاً، يعيش التوبة، ويوكل امره الى العناية، وما كان احوَج هذا الشعب الى هذا المثال، في مواجهة الفقر والفاقة، وتفشي الجراد وازمات الجفاف، واستبداد المتصرفين، ولا مبالاة الولاة؛ ولن يتنكر التاريخ اللبناني لدور البطريرك في محاولة التخفيف من المجاعة من خلال التصدي لها والعمل على مواجهتها من الداخل، مع الرهبنات وسائر المؤسسات، ومن الخارج، مع اصدقائه الكثر، وقد سمعوا نداءه، ولم يصمّوا آذانهم.. وهو من اعتبر ان للشأن الاجتماعي، كمحاربة الجوع، والجهل، وتنشئة الفتاة، و حقوق المرأة، اولوية قصوى تكمّل وتكلّل العمل الرعوي والرسالي، لأنه رافد بل عامل اساسي في بناء المجتمعات، وديمومة الاوطان.

مع قديس جديد من لبنان، مشى دروب آلامه، وعاش تحوّلاته، وكان اساس انشائه، واعادة احياء مجتمعه، يتعزز رجاؤنا بمستقبل آمن لهذا الوطن، ولشعبه، في خضم تحوّلات مريبة تلوح في الأفق، لن يبدّد غيومها سوى تدبير الرب، وشفاعة من حملوا صليب لبنان - وهذا «مجده» الذي أعطوه- ليحوّلوه ، بفوة من باتوا في جواره، الى قيامة دائمة.

رئيس التحرير

تطويب البطريرك الياس الحويّك
رسالة رجاء للعائلة وللوطن وللكهنة

الأخت ماري أنطوانيت سعاده

الرئيسة العامّة لراهبات العائلة المقدّسة المارونيّات

ليس من قبيل المصادفة أن يهب اللّه لبنان، في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخه، نعمة تطويب البطريرك الياس الحويّك. ففي زمن تتكاثر فيه الأزمات، وتضعف فيه الثقة بالمستقبل، تأتي الكنيسة لتعلن أن القداسة ليست ذكرى من الماضي، بل حضورٌ حيّ يرافق الشعوب، ويمنحها الرجاء، ويفتح أمامها طريقًا جديدًا.

لقد عاش البطريرك الحويّك أبًا لشعبه، وبتطويبه تقدِّمه الكنيسة اليوم أبًا وشفيعًا للبنان وللعائلة وللكهنة. إنها رسالة إلهية تقول إن خلاص المجتمع يبدأ من هذه الركائز الثلاث: عائلة متماسكة، وكهنوت أمين، ووطن يحيا في الحرية والكرامة.

كان البطريرك الحويّك يرى في العائلة الكنيسة الأولى، والمكان الذي تُصاغ فيه شخصية الإنسان، وتُزرع فيه بذور الإيمان والمحبة والتضحية. لذلك كرّس حياته لخدمة المجتمع وأسس جمعيّة رهبانيّة تعنى بالعائلة، كما ودافع عن كرامتها، والعناية بالفقراء والأيتام والأرامل، مؤمنًا بأن المجتمع لا يمكن أن يقوم إذا انهارت الأسرة. واليوم، في زمن تتعرض فيه العائلة لتحديات غير مسبوقة، يقدمه اللّه شفيعًا لكل بيت لبناني، لكي تبقى العائلة مدرسة للمحبة، ومهدًا للحياة، ورسالة رجاء للأجيال.

وكان الحويّك أيضًا أبًا للكهنة. عاش الكهنوت بروح الإنجيل، ورأى في الكاهن راعيًا يخدم ويحب ويبذل ذاته من أجل شعبه. واليوم، يحتاج كهنة لبنان إلى هذا المثال الحي، ليستمدوا من سيرته روح الأمانة، والتواضع، والثبات في الرسالة، وسط عالم يمتلئ بالتحديات. فشفاعته تذكّرهم بأن قوة الراعي تكمن في قداسته.

أما الوطن، فقد كان القضية الكبرى في قلب البطريرك الحويّك. لم يفصل يومًا بين محبة اللّه ومحبة الإنسان، ولا بين خدمة الكنيسة وخدمة الوطن. دافع عن كرامة اللبنانيين في زمن المجاعة، وحمل قضية لبنان إلى العالم، وأسهم بحكمة وشجاعة في ولادة لبنان الكبير، مؤمنًا بأن الحرية والتعددية والعيش المشترك ليست مجرد مبادئ سياسية، بل قيم إنجيلية ورسالة أرادها اللّه لهذا الوطن.

واليوم، فيما يرزح لبنان تحت وطأة أزمات متلاحقة، يعود الطوباوي الياس الحويّك ليذكّرنا بأن بناء الوطن يبدأ ببناء الإنسان، وأن النهوض الحقيقي يبدأ بالضمير وبالأمانة وبالقداسة. فلبنان الذي حلم به ما يزال مشروعًا يحتاج إلى نساء ورجال يحملون إيمانًا حيًا، وإلى مسؤولين يجعلون الخير العام فوق المصالح الخاصة، وإلى شباب يؤمنون برسالة وطنهم أكثر مما يستسلمون لليأس والهجرة.

إن تطويب البطريرك الياس الحويّك ليس احتفالًا بذكرى رجل عظيم فحسب، بل هو عطية إلهية للبنان في زمن الحاجة. فمن خلاله، تمنح الكنيسة المؤمنين شفيعًا يرافق العائلات، ويساند الكهنة، ويحمل الوطن في صلاته. وإذا كان الحويّك قد بنى في حياته جسور الرجاء بين الإنسان واللّه، وبين الكنيسة والوطن، فإن شفاعته اليوم تدعونا إلى أن نبني، نحن أيضًا، لبنان الذي حلم به: وطنًا يشرق فيه الإيمان، وتترسخ فيه العدالة، وتزدهر فيه المحبة التي بلا حدود.

رؤية البطريرك الياس الحويِّك وإنجازاته في تأسيس الوكالات البطريركيَّة في عواصم القرار

رؤية تتجاوز حدود لبنان

المطران مارون ناصر الجميِّل

راعي أبرشيَّة سيِّدة لبنان باريس للموارنة، سابقًا والزائر الرسولي على موارنة أوروبَّا (٢٠٢٦)

شكَّل البطريرك الياس الحويِّك (١٨٩٩-١٩٣١) أحد أبرز رجال الكنيسة المارونيَّة الذين امتلكوا رؤيةً بعيدة المدى لدور البطريركيَّة في العالم الحديث. فقد أدرك، منذ أن كان مطرانًا (١٨٩٠-١٨٩٩)، أنَّ الدفاع عن مصالح الكنيسة المارونيَّة وجبل لبنان لم يعد ممكنًا من خلال العلاقات التقليديَّة وحدها، بل بات يقتضي حضورًا دائمًا في العواصم التي تُصنع فيها القرارات الدينيَّة والسياسيَّة والدبلوماسيَّة. ومن هنا جاءت فكرة إنشاء الوكالات البطريركيَّة في أهم مراكز النفوذ في الشرق والغرب، لتكون أذرعًا للبطريركيَّة تمثِّلها، وتدافع عن حقوقها، وتتابع شؤون أبنائها، وتنسج علاقات متواصلة مع السلطات المدنيَّة والكنسيَّة.

ولم يكن اختيار المدن التي أُنشئت فيها هذه الوكالات اعتباطيًّا، بل استند إلى قراءة دقيقة لخريطة النفوذ في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

أولاً: روما... الحضور الدائم لدى الكرسي الرسولي

إثر وفاة البطريرك بولس مسعد، سنة ١٨٩٠، أوفد البطريرك الجديد يوحنَّا الحاج المطران الياس الحويِّك إلى روما، لطلب درع التثبيت. ومنذ ذاك الحين، أدرك أنَّ العلاقة مع الكرسي الرسولي لا يمكن أن تبقى رهينة الزيارات الموسميَّة أو المراسلات المتقطِّعة، بل تحتاج إلى تمثيل دائم يتابع شؤون الكنيسة المارونيَّة لدى دوائر الفاتيكان.

ولذلك عمل على تثبيت الوكالة البطريركيَّة في روما، وإعادة تأسيس المدرسة المارونيَّة بمباركة البابا لاوون الثالث عشر ودعمه، لتكون المرجع الإداري والدبلوماسي للبطريركيَّة لدى الكرسي الرسولي. وكانت مهمَّة هذه الوكالة الفاتيكانيَّة متابعة شؤون الأساقفة والإكليروس، والمدرسة المارونيَّة، والطلاَّب الإكليريكيِّين، والرهبانيَّات، والملفَّات القانونيَّة والإداريَّة، فضلًا عن تعزيز حضور الكنيسة المارونيَّة في قلب العالم الكاثوليكي.

ثانيًا: باريس... نافذة على القرار الفرنسي

وإذا كانت روما تمثِّل المرجعيَّة الكنسيَّة، فإنَّ باريس كانت تمثِّل المرجعيَّة السياسيَّة الدوليَّة بالنسبة إلى الموارنة. فقد كانت فرنسا، مع النمسا، تُعدُّ الحامية التقليديَّة للكاثوليك في الدولة العثمانيَّة، وكان القرار الفرنسي يؤثِّر بصورة مباشرة في مستقبل جبل لبنان.

وقد عرف الحويِّك فرنسا عن كثب خلال مهمته الشهيرة بين سنتي ١٨٩٠ و١٨٩٢، حيث أقام شبكة واسعة من العلاقات مع وزارة الخارجيَّة الفرنسيَّة، والبرلمان، والدوائر الكنسيَّة، والجمعيَّات الكاثوليكيَّة، والشخصيَّات السياسيَّة. ومن هذه الخبرة وُلدت فكرة إنشاء الوكالة البطريركيَّة في باريس، التي أصبحت تمثِّل البطريركيَّة بصورة دائمة أمام الدولة الفرنسيَّة، وتتابع مصالح الكنيسة والمدارس والرهبانيَّات والطلاَّب، وتؤمِّن التواصل المستمر مع صنَّاع القرار، بنهاية حكم «الرجل المريض".

ولم تمض سنوات حتى تحوَّلت هذه الوكالة إلى إحدى أهم أدوات العمل الدبلوماسي الماروني، وبلغ دورها ذروته خلال الحرب العالميَّة الأولى ومؤتمر الصلح سنة ١٩١٩، حين قاد البطريرك الحويِّك بنفسه الوفد اللبناني إلى باريس دفاعًا عن استقلال لبنان الكبير.

ثالثًا: القدس... الوكالة البطريركيَّة في قلب الأراضي المقدَّسة

أمَّا في المشرق العربي، فقد كانت أورشليم تمثِّل المركز الروحي للمسيحيَّة، كما كانت مقرًّا للقنصليَّات الأوروبيَّة ولعدد كبير من المرجعيَّات الكنسيَّة. ولذلك أنشأ الحويِّك الوكالة البطريركيَّة فيها لتكون صلة وصل دائمة مع الكنائس الشرقيَّة واللاَّتينيَّة، حيث يقيم البطريرك اللاتيني، ولرعاية الحضور الماروني في الأراضي المقدَّسة، ومتابعة أملاكه ومؤسَّساته، فضلًا عن تعزيز مكانة الكنيسة المارونيَّة في المدينة المقدَّسة.

رابعًا: القاهرة والخرطوم... التواصل مع العالم الإسلامي

كانت القاهرة، في مطلع القرن العشرين، واحدة من أهم العواصم العربيَّة وأكثرها انفتاحًا، ومركزًا اقتصاديًا وثقافيًا كبيرًا، فضلًا عن احتضانها جالية لبنانيَّة واسعة، إلى جانب الاسكندريَّة والمنصورة ودمنهور وسائر المدن.

ومن خلال الوكالة البطريركيَّة في القاهرة، استطاع الحويِّك أن يؤمِّن رعاية أبناء الكنيسة المارونيَّة في مصر، وأن يعزِّز العلاقات مع السلطات المصريَّة، ومع البطريركيَّات الشرقيَّة، وأن يتابع النشاط التربوي والصحفي والاقتصادي والخيري الذي اضطلع به الموارنة هناك، منذ لجوئهم إلى أرض الكنانة، منذ زمن نابليون بونابرت، وصولاً إلى قناة السويس وما تلاها من نهضة ...

قد تبدو الخرطوم، للوهلة الأولى، بعيدة عن مراكز القرار التقليديَّة، إلا أنَّ إنشاء وكالة بطريركيَّة فيها يكشف عن بُعد آخر في رؤية الحويِّك، يتمثَّل في مواكبة انتشار الموارنة في إفريقيا، ولا سيَّما مع ازدياد الهجرة اللبنانيَّة نحو السودان ومصر العليا وشرق إفريقيا.

وقد شكَّلت هذه الوكالة إطارًا لتنظيم الخدمة الراعوية، ومتابعة شؤون الجالية، وربطها مباشرة بالبطريركية، بما يعكس إدراك الحويِّك المبكر لضرورة مواكبة الانتشار اللبناني خارج المشرق؛ خصوصًا وأنَّ أبناءه انخرطوا تمامًا في الحياة الاقتصاديَّة والسياسيَّة والاجتماعيَّة في تلك البلدان. مثال ذلك، قنصل روسيًا في دجيبوتي، في تلك الفترة، كان مارونيًّا من بيت شباب، هو السيِّد إسكندر غالب.

مشروع متكامل لا مبادرات متفرقة

تكشف هذه الوكالات، عند النظر إليها مجتمعة، عن مشروع مؤسَّساتي متكامل، لا عن مبادرات منفصلة. فقد حرص الحويِّك على أن تكون البطريركيَّة المارونيَّة حاضرة في أربعة فضاءات متكاملة:

الفضاء الروحي في أورشليم، والفضاء الكنسي العالمي في روما، والفضاء السياسي والدبلوماسي في باريس، والفضاء العربي والانتشاري في القاهرة، ثم في الخرطوم.

وهكذا نسج شبكة من التمثيل الدائم أتاحت للبطريركيَّة أن تتحوَّل من مرجعيَّة محليَّة في جبل لبنان إلى مؤسَّسة ذات حضور دولي، قادرة على الدفاع عن مصالح الكنيسة والوطن، ومواكبة أبناء الانتشار أينما وجدوا.

خاتمة

إنَّ إنشاء الوكالات البطريركيَّة يُعدّ أحد أبرز الإنجازات المؤسَّساتيَّة للبطريرك الياس الحويِّك. فقد سبق عصره في إدراك أهميَّة الدبلوماسيَّة الكنسيَّة، وربط بين الرسالة الروحيَّة والعمل المؤسسي والعلاقات الدوليَّة. وكان بودِّه تأسيس وكالات في الأميركيَّتين، ولكن حال دون ذلك أمورٌ قانونيَّة رومانيَّة... ولم تكن تلك الوكالات مجرَّد مكاتب إداريَّة، بل أدوات استراتيجيَّة أسهمت في تعزيز مكانة الكنيسة المارونيَّة، وفي إعداد الأرضيَّة الدبلوماسيَّة التي مكّنت الحويِّك لاحقًا من الدفاع عن القضيَّة اللبنانيَّة في المحافل الدوليَّة، وصولًا إلى ولادة دولة لبنان الكبير سنة ١٩٢٠.

ومن هنا، يمكن اعتبار شبكة الوكالات البطريركيَّة إحدى الركائز الأساسيَّة في مشروع الحويِّك الكنسي والوطني، لأنَّها جسَّدت رؤيته لبطريركيَّة حاضرة في مراكز القرار، فاعلة في محيطها، وقادرة على الجمع بين الشهادة الإنجيليَّة والدور التاريخي في خدمة لبنان والموارنة والمشرق.

من إطعام الجياع إلى هندسة الوطن..

الحويّك بين لاهوت الرعاية ومشروع «لبنان الكبير»

في لحظات التحول الكبرى في تاريخ الأمم، تُمتحن المرجعيات الاستثنائية بمدى قدرتها على التقاط لحظة القدر، والانتقال بجماعاتها من دمار الكوارث إلى رحاب الكيانات المحصّنة. ولم تكن مرحلة سقوط السلطنة العثمانية والمجاعة الكبرى في جبل لبنان مجرد محطة عابرة، بل كانت مخاضًا أليمًا وَلِد من رحمه لبنان الكبير.

حول هذه الشخصية التاريخية الاستثنائية، البطريرك إلياس الحويّك، وكيف تحوّل من مرجعية روحية إلى صانع كيان وسياسيّ برتبة «رجل دولة»، كان لصحيفة الدستور حوار خاص مع **الخوري ريمون باسيل** (الأستاذ الجامعي في اللاهوت العقائدي والأسراري)، ليقرأ معنا الأبعاد الأمنية، السياسية، والكيانية لمهندس الاستقلال الأول للبنان.

من الرعاية الروحية إلى هندسة الكيان السياسي

امتلك البطريرك الحويّك ثلاثة عناصر جعلته قادرًا على حمل القضية اللبنانيّة:

- شرعيّة دينية وشعبيّة واسعة.
- خبرة في التفاوض
- شبكة علاقات كنسيّة ودبلوماسيّة.

وعندما انتدبه المجلس الإداري في جبل لبنان لرئاسة الوفد اللبناني إلى مؤتمر الصلح، لم يذهب بوصفه زعيمًا مارونيًا فحسب، بل بوصفه حامل تفويض سياسيّ للمطالبة بكيان لبنانيّ مستقل وموسّع وقابل للحياة. غادر لبنان في تموز ١٩١٩، وقدّم في باريس مذكرات ومطالب تتعلّق باستقلال لبنان وإعادة مناطقه التاريخية ووضعه تحت رعاية دولية فرنسية في المرحلة الانتقاليّة.

رجل دولة بلا شهوة السلطة

كان رجل دولة من دون أن يكون رجل سلطة. رجل الدولة لا يُقاس فقط بالمنصب الذي يشغله، بل بقدرته على: قراءة التحوّلات التاريخيّة وصياغة مشروع يتجاوز اللحظة الآنيّة والتفاوض باسم جماعة وطنيّة وبناء توازن بين الهويّة الخاصة والعيش المشترك.

الحويّك لم يطلب لنفسه رئاسة ولا وزارة، لكنه شارك في تحديد الإطار الذي ستنشأ داخله الدولة اللبنانيّة. بهذا المعنى، كان من الآباء المؤسسين للكيان، وإن لم يكن المؤسس الوحيد؛ فقد تضافرت جهوده مع جهود المجلس الإداري والوفود اللبنانيّة والنخب السياسيّة والروحيّة ومع قرارات القوى الدوليّة.

الجغرافيا والأمن الغذائي: كيف رُسمت حدود «لبنان الكبير»؟

ساهم بصورة حاسمة في تحديد التصوّر السياسيّ والجغرافيّ للبنان الكبير، لكنه لم يرسم الحدود منفردًا بقلم على خريطة. طالب بإعادة المناطق التي كانت تُعدّ امتدادًا اقتصاديًا وتاريخيًا لجبل لبنان، ولا سيما: بيروت وطرابلس ومحيطها وصيدا وصور وسهل البقاع وكذلك الأقضية التي كانت قد فُصلت عن جبل لبنان. كان جبل لبنان الصغير عاجزًا اقتصاديًا عن الاستمرار، لأنه يفتقر إلى السهول الزراعيّة والمرافئ والمدن التجاريّة. وقد أثبتت المجاعة أن الجبل المحاصر وغير المتّصل بالساحل والبقاع يمكن خنقه بسهولة. لذلك لم يكن توسيع لبنان في فكر الحويّك طموحًا جغرافيًا فقط، بل شرطًا للأمن الغذائيّ والسياسيّ. لقد جاء إعلان دولة لبنان الكبير في ١ أيلول ١٩٢٠ متضمّنًا بيروت والبقاع وطرابلس وصيدا وصور وغيرها من المناطق التي نادى الوفد اللبناني بضمّها.

بين الهوية الخاصة والمشروع الوطني الجامع

مشروعه النهائيّ لم يكن إقامة دولة مارونيّة مغلقة. لبنان الكبير الذي طالب به كان يضمّ مسلمين ومسيحيين، ومدنًا ومناطق لا تشكّل امتدادًا ديموغرافيًا مارونيًا. بقبوله هذا التوسّع كان يختار، عمليًا، لبنانًا تعدديًا، لا كيانًا طائفيًا متجانسًا. غير أن القول إن المشروع كان موضع إجماع كامل سيكون غير دقيق. فقد تحفّظت أو عارضت شرائح إسلاميّة ومسيحيّة فكرة الانفصال عن سوريا أو الانتداب الفرنسي، ورأت في لبنان الكبير مشروعًا لا يعبّر عن تصوراتها السياسيّة. لذلك كانت وطنيّة الحويّك جامعة في مقصدها، لكنها لم تكن موضع إجماع في لحظة ولادتها. وقد احتاج الكيان الجديد إلى سنوات طويلة لبناء شراكته الداخليّة وهويّته المشتركة.

صدمة المجاعة والحرب: مفهوم أوسع للأمن الوطني

جعلته الحرب العالميّة الأولى والمجاعة والقمع أكثر اقتناعًا بأن الأمن لا يتحقّق بالمواطن وحدها، بل يحتاج إلى: كيان سياسيّ معترف به وإلى حدود قابلة للحمايّة ولاسيّما إلى مرافئ مفتوحة وإلى سهول تؤمّن الغذاء وإلى علاقات دوليّة تمنع عودة العزل والحصار. لقد علّمته المجاعة أن الاستقلال السياسيّ من دون مقوّمات اقتصاديّة قد يبقى استقلالاً هشًّا. ولذلك ربط بين السيادة وبين القدرة على إطعام السكان وحمايتهم. الأمن عند الحويّك؛ كان أيضًا أمنًا غذائيًا واجتماعيًا وديموغرافيًا.

العلاقة مع فرنسا: تقاطع مصالح لا تبعية مطلقة

كانت علاقته بفرنسا وثيقة واستراتيجيّة، لكنها لم تكن، في نظره، غاية في ذاتها. رأى في فرنسا قوّة قادرة على مساندة المطالب اللبنانية، وحماية الكيان الناشئ، وضمان الاعتراف الدوليّ به بعد سقوط السلطنة. لقد طالب بانتداب فرنسيّ، متأثّرًا بالعلاقة التاريخيّة بين فَرنسا والموارنة وبموازين القوى بعد الحرب. إلا أن العلاقة لم تكن خضوعًا مُطلقًا؛ فمشروعه كان لبنان، بينما كانت لفرنسا مصالحها الاستراتيجيّة في سوريا وفي الشرق الأوسط. لذلك يجب التمييز بين المصلحة اللبنانيّة كما فهمها الحويّك، والمشروع الفرنسيّ كما صاغته فرنسا. لربما قد تقاطعت المصلحتان في إنشاء لبنان الكبير، من دون أن تتطابقا في كلّ شيء. والقراءة النقديّة تقتضي ألا يتحوّل لبنان إلى «تابع» لفرنسا، ولا أن نصوّر فرنسا قوّة خير مجرّدة من مصالح وطوطمات توسعيّة.

المتصرفية وحدود النظام الماروني القديم

منذ نظام المتصرفيّة الذي أُقرّ في ستينيات القرن التاسع عشر (١٨٦٠) بعد المجازر بحقّ المسيحيين وبخاصة العائلة السريانيّة، تمتّع جبل لبنان بحكم إداريّ خاص ضمن السلطنة العثمانيّة. كان يحكمه متصرّف مسيحيّ غير لبنانيّ، يعاونه مجلس إداريّ يمثّل الطوائف. وفّر هذا النظام قدرًا من الاستقرار، لكنه بقي محدودًا:

- لم يكن هناك من دولة مستقلّة، بل نظام متصرفيّة في جبل لبنان.
- بقي خاضعًا للسيّادة العثمانيّة.
- لم يمتلك مَنفذًا بحريًا مُستقلًا.
- افتقر إلى مساحات زراعيّة كافية.
- ظل أمنه مُرتبطًا بالتوازن بين السلطنة والقوى الأوروبيّة.

مع اندلاع الحرب العالميّة الأولى، عُلّق عمليًا جانب كبير من خصوصيّته، وأخضع لسلطة عسكريّة عثمانيّة شديدة، فظهر ضعف هذا النظام أمام الحرب والحصار.

التضييق العثماني ومخاطر النفي

واجه الحويّك مجموعة من التحدّيات المتداخلة:

- مراقبة البطريركيّة ومؤسسات الكنيسة.
- والتضييق على الحركة والاتصال بالخارج.
- مصادرة المحاصيل والمؤن ووسائل النقل.

التجنيد الإجباريّ والاعتقالات.

- الاشتباه في علاقات المسيحيين بفرنسا والدول الأوروبيّة.
- تهديد المرجعيّات الدينيّة والنُخب بالنفي أو العقاب.
- المجاعة والأوبئة وانهيار النظام الاجتماعيّ.
- وتشير مصادر تاريخيّة إلى أن قرارًا بنفيه أو إبعاده طُرح خلال الحرب، أكثر من مرّة، لكنه لم ينفّذ بفعل تدخلات دوليّة وكنسيّة.
- الدبلوماسية العابرة للحدود: رحلة باريس ١٩١٩
- ساهم عبر مسار دبلوماسيّ منظّم، لا عبر موقف خطابيّ عابر. ترأس الوفد اللبنانيّ إلى مؤتمر الصلح، وقدّم المطالب اللبنانيّة أمام المسؤولين الفرنسيين والدوليين. كوكب حوله نخب سياسيّة ورجال فكر وارتكز مشروعه إلى عناصر رئيسية:
- الاعتراف باستقلال لبنان عن الوحدات السياسيّة السوريّة المقترحة.
- توسيع متصرفيّة جبل لبنان.
- استعادة الساحل والبقاع والمناطق الضرورية اقتصاديًا وكأمن غذائيّ.
- ضمان دوليّ للكيان الجديد.
- الاستعانة بفرنسا في مرحلة الانتقال.
- كان يدرك أن الاعتراف الدوليّ لا يُمنح لمجرد الحقّ التاريخيّ، بل يحتاج إلى تمثيل ودبلوماسيّة وتحالفات وصياغة واضحة للمطالب. لذلك يُعدّ سفره إلى باريس سنة ١٩١٩ محطّة حاسمة في مسار إعلان لبنان الكبير.

بين الأمانة الروحية والواجب الوطني

لقد كان دوره روحيًا في مصدره، وطنيًا في هدفه، وسياسيًا في وسائله. مارس عملًا سياسيًا مباشرًا حين: ترأس وفدًا رسميًا وتفاوض مع الحكومات وقدّم مذكرات سياسيّة وطالب بحدود ونظام دوليّ وكيان مستقل. لكنه لم يتحوّل إلى زعيم حزبيّ، ولم يسعَ إلى احتكار السلطة. كان يعتبر أن خدمته السياسيّة امتداد لخدمته الرعويّة، خصوصًا عندما صار وجود الناس وكرامتهم وأرضهم مُهددًا. لذلك الأدق أن نقول: لم يمارس السياسة بغطاءٍ دينيّ، بل مارس مسؤوليّة وطنيّة نابعة من ضمير كنسيّ.

حكمة التفاوض في مواجهة البطش العثماني

اتّبع سياسة تجمع بين الحذر والثبات. لم يدخل في مواجهة عسكريّة غير متكافئة، لكنه لم يتخلّ عن الناس أو عن حقوق الكنيسة. استخدم ما كان يتقنه، أيّ فن التفاوض مع المسؤولين العثمانيين والسهر على الاتصالات الدبلوماسيّة والكنسيّة على صعيد عالميّ وخلق شبكات المساعدة غير العلنيّة حين كانت العلنيّة خطرة وتسخير سلطة البطريركيّة المعنويّة لمنع الاستغلال والاحتكار والحضور الشخصيّ أو من خلال من انتدبهم للوقوف على خاطر الجائعين والمهجرين والمنكوبين. كانت شجاعته واقعيّة، لا انتحاريّة. فقد عرف متى يتكلّم، ومتى يتفاوض، ومتى يعمل بصمت. وهذا من سمات رجل الدولة وهذا يدلّ فيما يدلّ على فطنته وحكمته وحنكته في تحمّل أعباء السلطة. وبذلك لم يعرّض شعبه لمزيد من الانتقام. وهذا برأي المتواضع إنجاز يضاف إلى إنجازات الحويّك العديدة.

المستويات الثلاثة لحماية المجتمع

حمايتهم لم تقتصر على توزيع المساعدات. عمل على ثلاثة مستويات متزامنة: الأولى تقوم على الحماية الآنيّة أيّ إطعام الجائعين، وإيواء المحتاجين، وتنظيم شبكات التضامن. والثانية قوامها الحماية السياسيّة أيّ الدفاع عن الناس أمام السلطات والسعي إلى تخفيف القمع والمصادرات. والثالثة هي الحماية المستقبليّة أيّ المطالبة بعد الحرب بلبنان أوسع، يمتلك الساحل والمرافئ والبقاع، حتى لا تتكرر كارثة جبل معزول يمكن تجويعه ومحاصرته كما أُشرنا آنفًا. ومن هنا تتضح العلاقة العميقة بين المجاعة ومشروع لبنان الكبير: الجوع أقنع الحويّك بأن الكيان السياسيّ لا يعيش من دون مقومات الحياة.

ينهي **الخوري ريمون باسيل** قراءته الشاملة لهذه الحقبة قائلاً:

«لم يكن البطريرك إلياس الحويّك مُهندسًا مُنفردًا رسم لبنان كما يشاء، ولا رجل دين بقي بعيدًا عن السياسة. لقد كان راعيًا حقيقيًا وجد شعبه بين المجاعة والقمع وانهيار الإمبراطوريّة، فأدرك أن الرعاية في تلك اللحظة تقتضي مشروع دولة. قوّته لم تكن في جيش أو حزب، بل في وضوح الرؤية والشرعية الأخلاقية، مسلكيّته لا غبار عليها، منزّه عن كلّ غاية وارتهان. لا يجب أن يغيب عن بالنا مقدرة الحويّك على التفاوض والحوار. خلقه شبكة التضامن الكنسيّ والاجتماعيّ، سمح له التحرّك بسرعة وبجديّة. ورؤيته النبويّة، من خلال تحويل آلام الحرب إلى مشروع سياسيّ للمستقبل. لهذا يمكن القول إن عظمته لا تكمن فقط في أنه طالب بلبنان الكبير، بل في أنه انتقل من إطعام اللبنانيين كي يبقوا أحياءً، إلى المطالبة بوطن يستطيع فيه أن يعيش الإنسان، كلّ إنسان، حرًا وكريمًا ومُستقلاً».

تحقيق ن. أبو مراد

البطريرك الطوباوي الياس الحويك ودوره في مواجهة كارثة المجاعة ١٩١٤-١٩١٨

لقد ابرز باحثون كثر دور البطريرك الطوباوي الياس الحويك في مجال الجهاد في سبيل قيام دولة لبنان الكبير، كما ابرزوا انجازاته في المجالين التربوي والاجتماعي، على سبيل المثال لا الحصر:

- مدرسة الطائفة المارونية في روما،
- لحظ حصة للطلاب في مدرسة سان سولبيس - باريس
- معبد باريس
- بطركخانة القدس
- صرح جديدة قنوبين
- جمعية راهبات العائلة المقدسة
- تمثال سيدة لبنان القائم على اكمة حريصا

ولكن الانجاز الأكبر، بحسب رأينا، هو مقاومته العملية لخطة ابادة اللّبنانيين من خلال تجويعهم.

صحيح ان هناك الاسباب المختلفة لهذه المجاعة ومنها انهيار مداخيل مربّي القز، والجراد، والحصار البحري، وجفاف المناخ، والامراض والأوبئة، ومصادرة وسائل النقل، والغلاء وجشع التجّار، ونقص اليد العاملة، واضطراب التعامل بالعملة الورقية، وغيرها من الاسباب المختلفة. لكن السبب المركزي - بحسب رأينا - هو ما بيّنه آخر متصرّف عثماني على جبل لبنان أوهانس قيومجيان في مذكراته التي حملت عنوان:

Le Liban à la veille et au début de la guerre. Mémoires d'un gouverneur 1913 – 1915, Paris, 2003.

يؤكّد هذا المتصرّف أن لجنة تركيا الفتاة كان هدفها تدمير لبنان والقضاء، من طريق الجوع، على قسم كبير من سكّانه، وتاليًا إلغاء الاستقلال اللبناني.

البطريرك الحويك يحدد أسس المواجهة:

ردًا على هذه الكارثة، أصدر البطريرك الياس الحويك، في ٩ ك١ ١٩١٦، توجيهًا الى الرعايا وأبرز ما جاء فيه:

- أن يبادر كل مطران في أبرشيّته الى طلب لوائح مضبوطة فيها أسماء الفقراء العاجزين عن كسب معاشهم بواسطة كهنة الرعايا ومشايخ الصلح ووجوه القرى الذين يجب أن يصدّقوا على هذه اللوائح.
- متى صارت هذه اللوائح عند مطران الأبرشية يستدعي اليه رؤساء الأديار ووكلاء المدارس والأوقاف في الأبرشية وتنفذ خطة لتوزيع الحنطة أسبوعيًا على اولئك الفقراء. وهذه يؤخذ ثمنها من كراسي المطارين والأديار والمدارس والاوقاف.
- ترفع نسخة من أسماء اللوائح الى المتصرّف للمطالبة بكمية الحنطة اللازمة لاولئك الفقراء.
- المطران الذي يوزّع الحنطة يجمع أكلافها وثمنها من الوكلاء الذين يتسلّمونها، ويسهر على وصولها للفقراء وحدهم. وعلى أهل الكنيسة أن يستدينوا الأموال اللازمة حتى يستمر التوزيع جاريًا الى أن تنتهي الأزمة.
- ومن أجل تيسير الحصول على المال المطلوب فوّض البطريرك المعنيين بإجراء ما يلزم من عقود الرهن والبيع.

عناصر الخطة:

لقد وضع البطريرك الحويك مع أمين سرّه، الخوري بولس عقل - المطران لاحقًا ١٩١٩ - خطة شاملة لمواجهة الكارثة ترتكز على عدة محاور:

- تعبئة شاملة لقوى الاغتراب اللبناني من أجل المساعدة.
- اقناع الجانب الفرنسي بتخفيف الحصار البحري لإيصال ارساليات الاغتراب الى الاهل في الداخل.
- استنفار اساقفة الكنيسة المارونية في الداخل وفي الخارج خاصة في مصر - من خلال المطران يوسف دريان - وفي روما من خلال المطران المقرّب جدًا من البابا بنديكتوس الرّابع عشر نعمة اللّه أبي كرم.
- تنظيم جهاز بشري ينقل الارساليات من مصر الى أرواد، وصولًا الى الشاطئ اللبناني (البوار ثم الفيدار). وهذا ما أمّنته الباخرة لا بوريو الفرنسية بمساعدة بحّارة لبنانيين بقيادة بشارة البواري.
- تنظيم مجموعة من المساعدين المراسلين الذين ينقلون الارساليات من شاطئ البحر الى الخوري بولس عقل في مخابئه الجبلية، ومن ثم ايصال هذه الارساليات من الخوري بولس عقل الى الأفراد المرسلة اليهم المساعدة في قراهم، وعدد هؤلاء المراسلين كان لا يقلّ عن ٩٥ شخصًا.
- تنظيم شبكة من الكهنة في أكثر من ٥٠٠ قرية يكونون صلة الوصل بين المراسلين والمستفيدين من المساعدة.
- عملية تنزيل المساعدة على الشاطئ، والانتقال بها الى الجبال تتمّ في الليل المظلم وبسرّية مطلقة. وكانت تحصل خمس او ست مرّات شهريًا.
- يرسل الخوري بولس عقل وصلًا مكتوبًا بالمبالغ التي يستلمها، والمبالغ الى اصحابها، مع مستندات خطيّة. وكلّها تُرسل الى الجهات الخارجية المعنية بهذه الارساليات.

استعمال الرموز والألغاز في المراسلات

من مرتكزات الخطة استعمال الرموز والألغاز في المراسلات وتغيير أماكن سكن الخوري بولس ومكان وصول المساعدات بحرًا وذلك خوفًا من انتقام السلطات العثمانيّة. ومن الأسماء المستعملة:

- البطريرك الحويك اسمه في المراسلات (أبو ناصيف)
- المطران دريان اسمه (الدكتور عارف)
- الخوري بولس عقل حمل عدّة اسماء (حكمت افندي الخوجة، الشيخ طنوس فارس، حارس، يوحنا، والعقل، N.S.)
- المونسنيور ميخائيل حويس حمل اسم (الدكتور مخائيل واسم محمد جلول)
- يوسف كرم كان يوقع بعض الرسائل باسم (جواني) أو (ابراهيم)
- ابراهيم كرم شقيق يوسف كان يسمى (بطرس)
- نعوم باخوس كان اسمه الرمزي (حنا فرنسيس)
- الدكتور ألفرد خوري كان لقبه (الرجل)

هذا الترميز كان يسعى لبقاء المساعدات سرّية. وفي هذا السياق يقول الخوري بولس عقل في احدى رسائله: «لم يعلم أحد سوى أبي ناصيف بما بيننا... لم يطلع أحدًا على السرّ لئلا يشيع ويذيع...»

أبرز جمعيات الاغتراب التي أرسلت المساعدات:

- لجنة منكوبي سوريا ولبنان في نيويورك وكان جبران خليل جبران مسؤولًا أساسيًّا فيها.
- جريدة الهدى (دور نعوم مكرزل)
- الخوري فرنسيس واكيم في أميركا.
- المونسنيور يوسف يزبك في أميركا.
- الجمعيات اللبنانية في باريس.
- بطركخانة الموارنة في بور سعيد.
- لجنة منكوبي المجاعة السورية في مصر والجمعية المارونية في مصر التي كان يرأسها داود بركات ثم حلّ مكانه انطون باشا الجميّل.
- جمعية المرسلين اللبنانيين الموارنة في الارجنتين.
- جمعية أعمال الرحمة في بونس أيرس.
- جمعية سوق الشفقة (Marché de la Pitié) في باريس بواسطة المونسنيور عمانوئيل فارس.
- الاخويات المارونية في الخارج.
- دوائر الفاتيكان المختلفة.
- الصليب الاحمر الدولي انطلاقًا من الولايات المتّحدة.

الأموال المرسلة

- كان الخوري بولس عقل يكلّف رسلًا (غالبًا الخوري يوسف الحصري) لتصريف الاموال الفرنسية أو الانجليزية أو الذهبية، الى ليرات وغروش عثمانية، في مدينة بيروت.
- بعملية حسابيّة تقريبيّة يمكننا أن نستنتج أكثر من ١٣٥ الف شخص، من ٥٠٠ قرية، استفادوا من المساعدات من كل الطوائف، مع العلم ان عدد الموارنة في المناطق اللبنانية، عام ١٩١٨، كان لا يزيد عن ١٨٠,٢٠٨ نسمة.
- بلغت القيمة الاجمالية للمساعدات المرسلة عبر وساطة الخوري بولس عقل ٣,٦٩٥,٤٣٨ قرشًا صاغ ورق ومساعدات المطران أبي كرم، من خلال تقرير المونسنيور لويس أبي كرم، أربعة ملايين فرنك فرنسي، وزّعت على المطارنة الأباء العامين للرهبنات وبعض الآباء ومجموع المساعدات الفرنسية المقدّمة حتى نهاية الحرب كانت ٤٥٥,٥٤٧ فرنكًا فرنسيًّا.
- بتحرّك من المهاجرين في أميركا، وبدعم من المطران نعمة اللّه أبي كرم في الفاتيكان، إستطاع الصليب الأحمر الدولي، إرسال باخرة حمّلت كميّات كبيرة من المساعدات: ٥٠٠ غالون زيت بذر قطن،

٨٢٥ ألف باشل (أي شوال) من القمح، ألف صندوق حليب مركّز، ٢٠٠ ألف باشل سكّر، ١٣٦٤٠ قدم مكّعب من المواد الغذائيّة والثياب، ٨٠ ألف باشل من الفول، ٩٨٠ ألف باشل من الطحين، ١٠٠ ألف باشل من البرغل، ٣٠٠ ألف باشل من الأرز، ٥ آلاف غالون من الكاز، ٤٥٨ صندوق أدوات صحيّة وأدوية للمستشفيات.

المساعدات العينيّة

لقد أصرّ البطريرك الحويّك على الجهاز الإكليريكي بتقديم الخبز والطعام للجياع. وثمّة تقارير مقدّمة من مطارنة الأبرشيّات (حتى أواخر العام ١٩١٦) تسلّط الأضواء على ما قامت به سائر الأبرشيات والرهبنات المارونيّة.

وفي أرشيف البطريركيّة المارونيّة وثائق عن كميّات الحنطة الموزّعة على مختلف القرى. فقد وزّع على ٤٣٩٣ فقيرًا في بلاد البترون، عام ١٩١٧ ما يزيد عن ألف رطل قمح. وفتحت عشرات المطاعم المجانيّة في مختلف المناطق.

لقد رفعت الكنيسة المارونيّة بلسان أمين سر البطريركيّة الخوري بولس عقل شعار (إمّا القوت وإمّا الموت).

واستطاعت مع الكنائس الأخرى ومع الأفراد والمؤسسات من السنّة والشيعة والدروز، من تخفيف آلام الجائعين واقتصار الوفيّات على ثلث الشعب، ولولا تلك الأشكال المختلفة من المساعدات لكان المخطّط المطروح - أي الوصول إلى الفناء الشامل- قد وصل إلى هدفه.

وبعد مئة عام يواجه شعبنا تحديّات مشابهة (التدمير والتهجير لربع الشعب اللبناني من أرضه التاريخيّة، الأعداد الكبيرة من النازحين واللاجئين، سرقة أموال المودعين، الهجرة وغلاء المعيشة وغيرها... وتزايد مشاريع هندسة الشعوب في المشرق العربي وصياغة خرائط جديدة في كواليس السياسات الإقليميّة والدوليّة، كم يجدر بنا أن نستلهم من سيرة البطريرك الطوباوي الحويّك، وأن ننفّذ توصيّات المجمع الإنطاكي الإصلاحيّة (٢٠٠٦) على مختلف الصعد وبخاصة حق المواطنين في بناء عائلة والحق في السكن، والتعليم والصحّة والسكن.

لقد قال المطران يوحنا حبيب عن الخوري الياس - الذي أصبح فيما بعد بطريركا - «كاهنٌ أخذ نفسه فراضها على كل فضيلة: عفيف صدوق عرفه الجميع بصحّة القول والإستقامة. لا يراوغ ولا يحابي إذا أتاه متظلّم داله من خصمه وكفاه مؤنه من نعى عليه وإن كان من أقرب الناس إليه. فكان الباغي يتقيه ويهابه والمظلوم يجد فيه مستغاثًا قلّما يجده في غيره».

لقد كان دور البطريرك الياس الحويك، وأمين سرّه الخوري بولس عقل، محوريًّا في مواجهة أهوال المجاعة. وأن ما قاما به من كفاح عظيم لبقاء شعبنا اللبناني على قيد الحياة، يكاد يكون من العجائب التي يجب أن تكون شهادة صارخة على طوباويته وقداسته.

الدكتور عصام خليفة

لوائح لمستفيدين من كلّ الطوائف (من أرشيف المطران بولس عقل)

الحويّك والمدرسة المارونيّة في روما

في مؤلّفه عن «**الإكليروس والملكيّة والسلطة**» الصادر عن دار النهار (٢٠٠٧) خصّص المؤرّخ **البروفسور جوزف بو نهرا** فصلًا عن «المدرسة المارونيّة الحديثة والمسألة الشرقيّة»، مبيّنًا تأثير التجاذبات السياسيّة على المشروع الديني.

وممّا كتب في هذا المجال: «أن مدرسة روما المارونيّة ساعدت الموارنة على تحقيق قفزة نوعيّة أشرقت فيها إطلالتهم شرقًا وغربًا عبر مساهمتهم الفعّالة في نهضة الشرق، وفي التبادل الثقافي وتعريف الغرب بأصالة الشرق. كما أنّ مدرسة روما شجّعت الموارنة على انفتاحهم على الفئات اللبنانيّة الأخرى، مسيحيّة كانت أم إسلاميّة، فساهموا، عبر تاريخهم الحديث، في خلق ذهنيّة دينيّة وسياسيّة منفتحة لصيغة عيش مشترك مع مختلف الطوائف والمذاهب...»

هذه المدرسة التي أغلقها نابوليون بونابرت وباع أملاكها سنة ١٧٩٨ إثر اجتياحه إيطاليا، وبقيت مقفلة حوالي المئة سنة (١٧٩٨- ١٨٩٣) أعيد فتحها في عهد البطريرك يوحنّا الحاج، بهمّة وسعي دؤوب من المطران الياس الحويّك.

أمّا اعادة فتحها فخضعت لتجاذبات وصراع نفوذ بين أكثر من دولة، ولاسيّما فرنسا والنمسا وايطاليا والفاتيكان والسلطنة العثمانيّة.

ففي العلاقة مع العثمانيّين، شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر تحوّلات مهمّة مع نظام المتصرفيّة الذي أتاح للكنيسة المارونيّة إبراز دورها الرائد على أكثر من صعيد، وقد باتت، بعد ضعف سلطات العائلات الإقطاعيّة، السلطة الممثلة لطموحات الشعب، والمدافعة عن مصالحة.

وفي سنة ١٨٩٠، عندما فكّر البطريرك يوحنّا الحاج بإعادة فتح المدرسة المارونيّة، أوفد المطران الياس الحويّك إلى اسطنبول للمساعدة في تمويل المدرسة، بناء على وعد من السلطان العثماني. إلاّ أن الوشايات والدسائس، الصادرة من المتصرّف، وصلت إلى الباب العالي وحالت دون تنفيذ الوعد.

ولم يسهم الفرنسيّون، لأسباب خاصة بهم، في دعم موقف الحويّك تجاه السلطان، فتعطّل المشروع إلى حين.

ويفصّل المؤرخ البروفسور أبو نهرا هذا المشهد كاتبًا: بقي المطران الحويّك في روما شهرًا ينتظر جواب السفير العثماني فيها بشأن الإذن له بالسفر إلى الآستانة. ولمّا وصلها في ١٨٩١/١٢/٢٢ وجد نفسه أمام طريق مسدود، ولم يتمكّن من قبض المنحة الماليّة التي وعد بها السلطان، والبالغة عشرة آلاف فرنك فرنسي. وقد بقي الحويّك في اسطنبول حوالي الأربعة أشهر، يتنقّل من دائرة إداريّة إلى أخرى، حتى تمكّن من قبض المبلغ المذكور في نيسان ١٨٩٢ بفضل مساعي الوجيه الماروني سليم بك ملحمة.

كما حصل المطران الحويّك، إلى جانب المبلغ المذكور، على النيشان المجيدي طبقة ثانية، من دون أن يحظى مقابلة السلطان، رغم تدخّل السفير الفرنسي ووجهاء موارنة بارزين، متل سليمان البستاني، وسليم ملحمة، ويوسف حوّا، والشيخ سليم الدحداح.

أمّا الحكومة الفرنسيّة فلم تكن موافقة على سياسة الفاتيكان الجديدة، خوفًا من تخلّي البلدان المشرقيّة عن الإعتماد على فرنسا، خصوصًا وأن العلاقات بين الفاتيكان والسلطة العثمانيّة جيّدة. لذا فإن زيارة الحويّك إلى فرنسا، ومكوثه فيها من آب ١٨٩٠ حتى أيار ١٨٩١ لم تكن مثمرة، رغم الوساطات المتعددة، وجهوده المتواصلة مع السلطات الفرنسيّة.

أمّا خلفيّة الموقف الفرنسي فسياسيّة واضحة، حيث أنّها لم تكن متحمّسة لمشروع إقامة المدرسة في روما، وليس في باريس، وهذا ما قاله للحويّك وكيل وزارة الخارجيّة، السيّد دو كورسيل: «أنّ مشروع المدرسة في إيطاليا وفي إدارة الطليان يشرّب إحداثكم الميل لسوانا» وقد انفعل الحويّك لهذا الكلام، وردّ قائلًا: «أن غرضنا إنشاء معهد ديني لا سياسي، ورومیه عاصمة الكثلكة... جئنا نطلب منكم المساعدة تعويضًا عمّا أخذتم قديمًا من أموال هذه المدرسة، فحرمتم الطائفة أكبر مورد لإكليروسها، والإكليروس عندنا على رأس الشعب وشديد التعلّق بفرنسا».

وبهذا الإنفعال واجه الحويّك وزير الخارجيّة الفرنسي، السيّد ريبو قائلًا له: «نحن نحب فرنسا أكثر منكم... أنتم عندكم أحزاب وكثيرًا ما تضنون بمصالح فرنسا إسترضاء لأحزابكم. أمّا نحن فلا أحزاب عندنا، وكلّنا مجمعون على حبّ فرنسا مهما تقلّبت الأحوال، ومهما آلت إليه طبيعة الحكم فيها. فلمّا كانت ملَكيّة كنّا نحبّها، ولمّا صارت إمبراطوريّة ثبتنا على حبّها، ولمّا ثارت الثورة وانقلبت إلى جمهوريّة لم نتحوّل عن حبّها».

المساعدة الفرنسيّة المشروطة

لم يترك الحويّك في فرنسا بابًا إلاّ وطرقه، فقد قابل رؤساء الجمهوريّة ومجلسي النواب والشيوخ، ووزراء وأعضاء في المجلسين، ولم تلق محاولاته إلاّ وعودًا فارغة. وبعد تحريك الصحافة الفرنسيّة، وتعاطف الشعب مع مطلب الحويك قرّرت الحكومة مساعدة بـ ١٢ ألف فرنك، مشروطة بضمان مصالح فرنسا، وبأن تكون المدرسة بإدارة كاهن فرنسي، وأن يكتب بإسم فرنسا على لوحة التدشين التذكاريّة، وإلاّ «فلا مصلحة لنا بمساعدة مدرسة في إيطاليا» كما قال وزير الخارجيّة الفرنسي وتعويضًا عن ذلك اقترح الوزير أن تدفع الحكومة الفرنسيّة سنويًا منحة لثمانيّة إكليريكيّين، موارنة للدراسة في إكليريكية سان سولبيس الفرنسيّة... وقد تخرّج من هذه المدرسة، فعلًا، نخبة من رجال الدين الموارنة.

وكانت فرنسا تعتقد أنّها في عرضها هذا ستجعل الموارنة يقلعون عن مشروع مدرسة روما. أمّا السلطات المارونيّة فقبلت العرض الفرنسي، دون أن تتخلّى عن مدرسة روما.

كما أن المطران الحويّك لم يبرح باريس قبل الاستحصال على كنيسة للطائفة المارونيّة، مع مسكن لكاهن يمثّل البطريرك في العاصمة الفرنسيّة. وقد تمّ استلام الكنيسة في ١٠ آذار ١٨٩٢، وهي كنيسة قصر اللوكسمبورغ الشهيرة، حيث مجلس الشيوخ الفرنسي، التي استرجعتها الحكومة الفرنسيّة فيما بعد، ووهبت الطائفة كنيسة أخرى وديرًا ملحقًا بها، وهي كنيسة سيّدة لبنان القائمة حاليًا في جوار الـ Panthéon.

أمّا الدول الأخرى التي زارها الحويّك لدعم المشروع فكان موقفها سلبيًا، منها بلجيكا، ولا سيّما النمسا التي توجّه إليها المطران الحويّك، وقابل وزير خارجيتها قائلًا له: أنّ مملكتكم تسمّى الإمبراطوريّة الرسوليّة الكاثوليكيّة، ونحن الموارنة متعلّقون بالكرسي الرسولي فنأمل إلتفاتتكم ومساعدتكم.

أمّا الوزير الممتعض فرفض تقديم أيّة مساعدة قائلًا: أنّكم تحت حماية فرنسا، وهي أولى بمساعدتكم. ولم يبقَ الحويّك صامتًا أمام هذا الكلام.

وبفضل جهود هذا المطران الشجاع، ومثابرته، تمكّن من جمع التبرّعات من الشعب الفرنسي الذي تخطّى الموقف السياسي لحكومته وفتحت أبواب المدرسة المارونيّة في روما في ١٧ آب ١٨٩٢، وهي اليوم مركز الوكالة البطريركية، ومقرّ إقامة الكهنة الذين يتابعون دراساتهم العليا في جامعات روما.

عندما تتحوّل السياسة إلى رسالة وطن...

في تاريخ الأمم رجال سياسة يصنعون الأحداث، ورجال دولة يصنعون المؤسسات، لكن قلّة هم أولئك الذين يصنعون الأوطان. وفي تاريخ لبنان الحديث يبرز البطريرك الماروني الثاني والسبعون، مار الياس بطرس الحويك، المنتخب سنة ١٨٩٩ والمتوفي ١٩٣١ في حبرية امتدت اثنتين وثلاثين سنة، وكانت أطول بطريركية في القرنين التاسع عشر والعشرين.

تميّز كواحد من أولئك الذين تجاوزوا حدود الزعامة الدينية ليصبحوا من الآباء المؤسسين لدولة لبنان الكبير سنة ١٩٢٠، فاستحق لقب «أب لبنان الكبير».

لم تكن السياسة عند الحويّك صراعاً على السلطة، ولا سعياً إلى النفوذ، ولا بحثاً عن مكاسب فئوية أو امتيازات طائفية. كانت رؤية أخلاقية متجذّرة في إيمانه بالإنسان وكرامته، وفي قناعته بأن الحرية ليست امتيازاً تمنحه الدول لشعوبها، بل حقاً طبيعياً يولد مع الإنسان. لذلك حمل قضية لبنان إلى المحافل الدولية لا بصفته ممثلاً لطائفة، بل صوتاً لشعب يتوق إلى الحياة والحرية والازدهار.

في زمن كانت المنطقة تعيش تحوّلات كبرى، أدرك الحويّك أن لبنان لا يستطيع أن يكون مجرّد ملحق جغرافي تابع لمحيطه، بل وطناً له شخصيّته الخاصة ورسالته الفريدة بين الشرق والغرب. ومن هنا جاءت مطالبته بقيام لبنان الكبير، ليس انطلاقاً من نزعة انعزالية، بل من إيمان عميق بأن التنوّع الذي يختزنه هذا الوطن قادر على أن يتحول إلى نموذج حضاري للعيش المشترك.

لقد رأى الحويّك في لبنان أكثر من كيان سياسي. رآه مساحة لقاء بين الأديان والثقافات، ومنبراً للحريّات، وملاذاً للشعوب الباحثة عن الكرامة. لذلك ارتبط مشروعه السياسي بمشروع اجتماعي متكامل يقوم على العدالة والإنماء والتوازن بين المناطق. فالسياسة عنده لم تكن مجرد رسم للحدود، بل بناء للإنسان وحماية لحقوقه وتأميناً لمستقبله.

أما صورة لبنان التي حلم بها الحويّك فكانت صورة وطن سيّد حر مستقل، لا غالب فيه ولا مغلوب، ولا مواطن من درجة أولى وآخر من درجة ثانية. لبنان الذي أراده هو وطن المشاركة لا الإلغاء، والتنوع لا الانقسام، والحرية لا التبعية. وطن يلتقي فيه المسلم والمسيحي حول هوية وطنية جامعة تحترم الخصوصيات وتحتضن الجميع.

اوَلم يكن هو القائل «ان طائفتي هي لبنان»، اوَلم تكن «محبة الوطن» في صميم تعليمه، و خاتمة الرسائل الرعوية التي كتبها؟!

اليوم، وبعد أكثر من قرن على ولادة لبنان الكبير، تبدو أفكار الحويّك أكثر راهنية من أي وقت مضى. ففي زمن الانقسامات والأزمات والتجاذبات، يعود السؤال الجوهري: هل ما زلنا نحمل لبنان الرسالة الذي نادى به؟ وهل ما زالت السياسة عندنا خدمة للصالح العام أم تحولت إلى صراع مصالح ومواقع؟

لقد ترك البطريرك الحويّك للبنانيين إرثاً يتجاوز حدود التاريخ. ترك لهم فكرة وطن، وحلماً بدولة، ورسالة حرية. ولذلك يبقى حضوره حياً في وجدان اللبنانيين، ليس فقط كأب للبنان الكبير، بل كضمير وطني أدرك أن الأوطان لا تُبنى بالقوة وحدها، بل بالإيمان بها أولاً، وبالإنسان الذي يعيش فيها قبل أي شيء آخر.

من سيرة الحويّك نتعلم أن السياسة يمكن أن تكون عملاً نبيلاً عندما تنطلق من خدمة الإنسان، وأن الوطنية تبلغ أسمى معانيها عندما تتجذر في القيم الروحية والأخلاقية. ولهذا يبقى البطريرك الحويّك واحداً من كبار صانعي لبنان، ورمزاً لوطن حلم به مساحة حرية وكرامة ورسالة في هذا الشرق المضطرب.

ماري تريز باشا حنين

شهادات حيّة موجزة من معاصري البطريرك الطوباوي

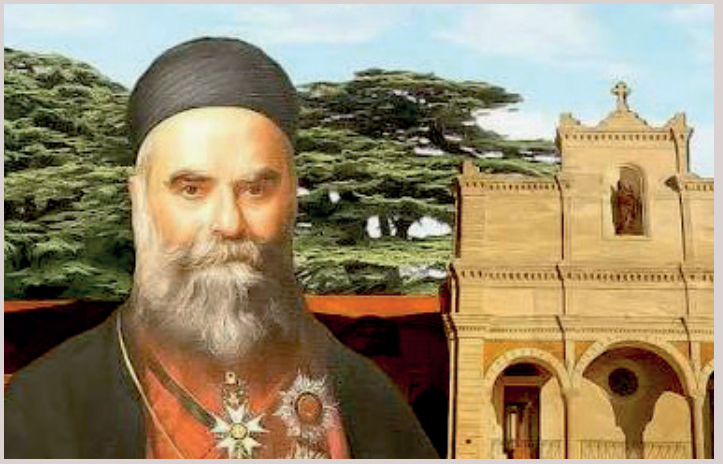

عندما طلب إلي الصديق الزميل أنطوان سعد، رئيس تحرير «الدستور» الغرّاء، أن أكتب عن البطريرك الحويك، إرتبكت لكثرة ما كتب عن مساره الحياتي. لكننا استقرينا معًا على أن أبرز بعض الشهادات الحيّة التي كان يروي عنها للعامّة ولي، والدي بطرس السكرستاني الذي دخل بخدمة البطريركية على أيام الحويك في أواخر الحرب العالميّة الأولى، إثر وفاة والده يوسف «المكاري» بنتيجة إعتداء عليه، ولجوء أرملته منفردة للبطريرك والمطران عبدالله الخوري لتشغيله لتتمكن من إعالة عائلتهما.

وهكذا دخل والدي بالخدمة سبعين سنة متواصلة يُجانب البطاركة الحويك وعريضة والمعوشي وخريش وصفير ويروي ويتذكر، «ترقى» خلالها الى مهمة «شماس البطرك» دون ان يتخلى عن «السكرستيا»...

بطريركية الديمان:

أخبرني الوالد، أن البطريرك يوحنا الحاج، الكسرواني، كان قد شارف على إنجاز صرح بكركي البطريركي الحالي باتقان مميز، ما عرضه للملامة من أساقفة الشمال لجهة أنه كان من الأجدى أن يبني صرحًا بطريركيًّا في الديمان وريثة قنوبين المباشرة، فبدأ ببناء «الدير العتيق» فيها قرب كنيسة مار يوحنا مارون الرعوية، إلّا أن اللوم استمر لدى معاينة التصميم (بحرف H) تيمناً باسم عائلته، وتقدم الإنشاءات، فتريث ... وتوفي عندها، وخلفه المطران الياس الحويك من فريق أساقفة الشمال الذي بادر فور توليه إلى بناء الصرح البطريركي الحالي في الديمان، ضمن رعية مار يوحنا مارون التي كانت أنشئت بأيام البطريرك الحلو في مطلع العام ١٨٢٠...

رعاية شركاء البطريركية والفقراء:

من المزايا الايمانية للبطريرك الياس، الذي كان عاشر المجتمعات الغربية بثقافتها المسيحية والاجتماعية المتطورة، أنه بادر فور توليه السدّة البطريركية بالعناية القصوى أثناء الحرب العالمية الأولى التي عمّ الجوع والحرمان فيها مسيحيي لبنان الصغير وسكانه، بادر بإستقدام المساعدات لإعانة الأهالي، موصيًا بأن يهتم كل إنسان ب«عودته» ويزرع فيها الأشجار والزراعات التي تغطي المساحات لكل فصول السنة بما يؤمن المأكل الدائم للجميع... والكفاية المعيشية...

وقد إلتفت مباشرةً الى شركاء البطريركية في أرض الديمان وقنوبين وبلوزا وسواها، الذين كانوا ينامون مع مواشيهم تحت سقف واحد، فبادر إلى مساعدتم بالاخشاب والمواد لبناء طابق علوي يسكنونه فوق الأرضي، المخصصً للماشية، صادحاً بأنه لا يجوز إنسانيًّا وحياتيًّا أن يتشاركوا مع المواشي نفس الطابق الأرضي.

وهكذا ما شكل نقلة نوعية للحياة، ترقيةً للإنسان المسيحي واللبناني.

راهبات «عبرين» وتعميم التعليم والتربية والعناية الصحيّة:

في مجال هذه الترقية البشرية، بادر البطرك إلياس إلى تأسيس جمعية راهبات العائلة المقدسة المارونيات التي وَزعت مدارسها على القرى، تعميمًا للتعليم والتثقيف والتربية، من أجل جيلٍ راقٍ متطور...

ولا يزال البطريرك يرقد بجسده في ديرهن في عبرين، الذي يحج إليه المؤمنون للتبرك...

بطريرك الإلفة:

إستقطب البطريرك الياس الحويك اللبنانيين بمختلف فئاتهم وطوائفهم، إذ كانوا يحجون الى الديمان من جميع أنحاء لبنان على بعد المسافات وصعوبات النقل في أيامه، خاصةً من قرى الشمال الأقرب، حيث كانت البطريركية تستضيفهم جياعًا وميسورين، وتقدم لهم على موائدها بفرقها العاملة بإستمرار الطعام والمعونات.

ويضيف الوالد والشهود ما كنا نسمعه من العامة، إن البطريرك وجمهوره كانوا يستقبلون وفود «الصيف» وكانوا يَردُون الزيارات الى بيوت الشركاء في الديمان... ويجالسونهم ويتناولون معًا ثمار المواسم الصيفية، خاصةً «الذرة»...

كله غيض من فيض مما سمعه المعاصرون، والذي لا نزال نسعى الى تذكره والبوح به من على سطيحة بيتنا، وتوثيقه ببساطة.

المحامي جوزف بطرس فرح

“Je suis le patriarche de tous les libanais”

Le patriarche Howayek: prophète du vivre ensemble

L’histoire a retenu de lui cette phrase emblématique: “ “Je suis le patriarche des maronites! Ma communauté est le Liban. J’appartiens à tous les Libanais”.

“Juvenis ad majora natus”. “Né pour les grandeurs». C’est la devise de saint Stanislas notée prophétiquement en marge du livret scolaire d’Elias Boutros Howayek (1843-1931), à la fin de ses études théologiques à Rome. Il avait alors 27 ans et se trouvait dans la capitale italienne, envoyé par le patriarche Boulos Massaad, pour parachever au Collège maronite ses études théologiques et se préparer au sacerdoce.

Marqué par sa vive intelligence et son pointilleux respect du règlement, cet homme promis à la grandeur allait devenir rien moins que le 72e représentant d’une longue lignée de saints patriarches maronites dont il est, certainement, l’une des personnalités les plus marquantes. Sa grande œuvre fut sa bataille pour la naissance du Grand Liban, proclamé par le général Gouraud, haut-commissaire de la jeune république, le 1er septembre 1920.

Né en 1843 à Helta (Batroun), minuscule village d’un obscur coin de l’empire Ottoman, Elias Howayek fut en effet l’homme de la Providence qui allait défendre auprès de Georges Clémenceau, puis auprès de la Société des Nations, à la fin de le Première guerre mondiale, l’idée de la création d’un Grand Liban, deux mois après la signature du Traité de Versailles (28 juin 1919), qui plaçait une partie du Proche-Orient sous mandat français.

On pourrait se demander dans quelle mesure le choix du Patriarche Howayek en faveur d’un Liban pluraliste constituait un pari historique viable, alors même que les dynamiques dominantes du monde arabe au XXe siècle – décolonisation, montée du nationalisme, essor de l’islam politique et contestation de la modernité occidentale – évoluaient dans une direction souvent opposée ? Le projet pluraliste défendu par le patriarche relevait-il d’une anticipation visionnaire de la diversité proche-orientale, ou d’un pari historique rendu progressivement fragile par les grandes évolutions du XXe siècle ?

Il y a pourtant, derrière cette décision – c’est le moins qu’on puisse dire-, une rare clairvoyance politique, économique et ecclésiologique. D’abord, le Grand Liban mettait les Libanais chrétiens à l’abri de la dhimmitude qui aurait été leur lot dans les pays à majorité islamique qui se formaient; en outre, en intégrant Beyrouth, Tripoli, la Békaa et le Jabal Amel au noyau « libanomontain» de la Moutassarrifiyya, il rendait au pays son « grenier à blé» et le mettait à l’abri d’une famine analogue à celle qui décima sa population en 1915; il lui assurait de plus de riches ressources hydrauliques et enfin il le couronnait de l’une des plus belles façades maritimes de la Méditerranée, et par la même occasion, d’un promontoire stratégique unique.

Mais si le Liban géographique était un véritable bijou, sa vocation humaine et spirituelle n’était pas moins précieuse : dans l’esprit de son défenseur, il devait servir d’écrin au vivre ensemble, faire cohabiter « le loup et l’agneau» (Isaïe), un idéal biblique messianique que le Liban tentera d’incarner, et dont Jean-Paul II dira qu’il est « un modèle de liberté et de pluralisme pour l’Orient et l’Occident»; un modèle qui continue de tirer le Liban vers le haut, en dépit de toutes les défaillances historiques que le Liban va connaître.

Explications

Un peu plus de cinq ans après la proclamation de l’État du Grand Liban le 1er septembre 1920 à partir de la Résidence des Pins, le patriarche eut l’occasion d’expliciter sa position politique. Répondant à un questionnaire fondamental adressé au Patriarcat maronite par les autorités mandataires, sur la nature de la représentation parlementaire, le Patriarche Elias Hoyek et les évêques maronites explicitèrent, le 8 janvier 1926, qu’elle devait être confessionnelle, pour les motifs suivants : « Le pays est composé de communautés religieuses diverses. Elles ne diffèrent pas uniquement par leurs dogmes, mais également par leurs traditions, leurs coutumes, leurs mœurs et leur approche des questions sociales. Par conséquent, l’élection sur une base confessionnelle permet de représenter ces communautés au sein de l’assemblée selon une proportion définie. Elles y apprennent à se connaître et à s’accorder, chacune acceptant de sacrifier une part de ses exigences par le jeu des concessions mutuelles. Cette dynamique conduira progressivement à une osmose et à une unification de la vie politique.» (Archives du Patriarche Elias Hoyek).»

« Ce qui frappe le lecteur dans cet exposé magistral, commente le Pr Georges Hobeika, vicaire général de l’Ordre libanais maronite (OLM) et Recteur émérite de l’Université Saint-Esprit de Kaslik, c’est que le Patriarche Hoayek appréhende la diversité, le pluralisme et les divergences au sein des sociétés humaines comme une donnée naturelle. Il ne voit rien d’anormal dans l’hétérogénéité des traditions, des coutumes, des mœurs et des opinions générées par les croyances religieuses. Il respecte le droit à la différence et s’y attache fermement comme à un droit sacré, non négociable. Le contraire eut été surprenant.»

Fady Noun

Du Liban-message au Liban-mission

Dans la grande tradition maronite, le patriarche Howayek a adressé à sa communauté, tout au long de son patriarcat, des «messages» annuels. Le plus célèbre d’entre eux, à juste titre, est celui qu’il lui a adressé en 1930, sous le titre «L’amour de la patrie». Ce texte est son testament spirituel. Au crépuscule de sa vie - il meurt à 88 ans-, il y révèle notamment son obsession pastorale pour le Liban qu’il aidé à naître.

Puisant dans l’étymologie latine du mot patrie, le patriarche écrit: «Les Occidentaux ont raison de choisir le terme «Patria» dérivé de «Père» pour exprimer ce que nous appelons en notre langue «Al Watan». Dans la droite tradition de saint Thomas, pour le patriarche Howayek, le patriotisme est une vertu morale qui s’inscrit dans la continuité des devoirs familiaux.

Or on voit bien que le patriarche est tourmenté par le manque de civisme et le népotisme qu’il constate autour de lui. Il a le cœur percé. «De toute évidence, les responsables ne répondent pas à son désir de citoyenneté», confirme Sr Marie-Antoinette Saadé, supérieure de la Congrégation de sœurs maronites de la Sainte Famille, que le patriarche avait fondée à la fin du XIXe siècle. La dislocation de l’esprit de famille l’inquiète tout autant.

Oui, d’évidence, la plaidoirie passionnée du patriarche Howayek reflète les douleurs de l’enfantement d’une nation, dans l’esprit d’un homme soucieux de corriger les défauts de sa phase infantile, et de la conduire à la plénitude du sens du service public et de l’intérêt général.

La leçon est toujours d’actualité. Elle le sera pour chaque génération. «Ce pays» est l’expression la plus usuelle que beaucoup de Libanais utilisent pour parler du Liban comme d’un décor extérieur à leur existence.

De la préhistoire à l’histoire du Liban

Pourquoi tant de d’indifférence? Un début de réponse à cette question se trouve dans une étude de l’historienne Candice Raymond (IFPO): «Vie, mort et résurrection de l’histoire du Liban ou les vicissitudes du phénix» paru en 2013. Elle écrit: «Aux lendemains de la Première Guerre mondiale, lorsque la question territoriale se posa...”. À la rhétorique de la lutte perpétuelle contre l’oppression vint alors se substituer une téléologie du pouvoir d’État qui distingue historiographie communautaire maronite et historiographie libaniste maronite. Ce dernier inverse en effet le rapport unissant la communauté maronite au territoire libanais (les italiques sont de l’auteur de cet article). Ce n’est plus la communauté qui, par son combat pour la liberté, attribue son identité particulière au territoire qu’elle occupe, mais ce territoire qui, du fait de ses septicités morphologiques et géographiques, impose une mission et une identité à ses occupants.»

Mais les Libanais de 1930 ne semblent pas avoir pris conscience, ni saisi l’importance de «l’inversion» signalée par l’historienne citée. Le message du patriarche Howayek visait, à n’en pas douter, à faire le lien entre le basculement historique qui venait de se produire et la nécessité d’un nouveau système de valeurs, d’un passage d’une responsabilité pour soi, à une responsabilité pour soi et pour autrui. Le Liban venait en effet de passer de la préhistoire à l’histoire. Le Grand Liban était en réalité, et fondamentalement un véritable “envoi en mission”, et non pas «une foire à profit», comme beaucoup de Libanais d’alors semblent l’avoir malheureusement vécu. On imagine l’immense déception du patriarche Howayek de voir la première génération de Libanais se conduire d’une façon indigne de l’idéal qui avait présidé à la naissance de leur patrtie.

L’originalité du patriarche Howayek n’en éclate que plus fort. Malgré” toutes les défaillances qui ont marqué l’exercice du pouvoir au Liban, son choix en faveur du pluralisme va permettre au Liban d’échapper aux déterminismes des Etats totalitaires, des réveils islamiques et autres dérives qui dévastent le Moyen-Orient et le Monde arabe depuis un siècle; un siècle que Ghassan Tuéni a affirmé avoir été gaspillé «pour rien».

De la diversité assumée, modérée et protégée que fut le choix patriarcal, il est né une des expériences humaines les plus profondes et les plus originales du XXe siècle. On a osé parler du Liban comme d’une “erreur historique”. Heureuse erreur qui nous a valu une telle patrie.

F. N.

«فيلوكاليا» تُنشد الحويك

رسالتنا خدمة الإنسان وبناء لبنان

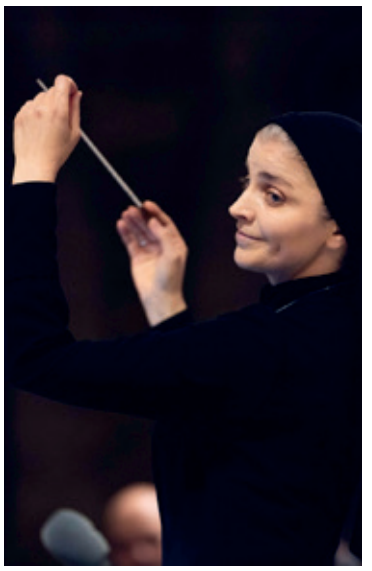

في رحاب تطويب البطريرك الحويّك... نشيد يحمل ذاكرة الإيمان والرجاء

على وقع الاستعدادات لتطويب البطريرك الماروني الياس الحويّك، المؤسس الفعلي للبنان الكبير وأحد أبرز الوجوه الروحية والوطنية في تاريخ لبنان، يبرز العمل الفني الذي أُعدّ لهذه المناسبة، وهو نشيد من كلمات الدكتور أنطوان سعد وألحان الراهبة الأخت مارانا، ليشكّل تحية موسيقية لبطريرك ترك بصمة عميقة في مسيرة الكنيسة والوطن.

في دير راهبات الزيارة، حيث تتلاقى الروحانية مع الفن والثقافة، كان لنا لقاء مع **الأخت مارانا سعد** للحديث، إنطلاقًا من هذا النشيد، عن رسالة «فيلوكاليا» التي باتت مساحة تجمع بين الجمال والإيمان والفكر.

كيف وُلد نشيد البطريرك الحويّك؟

تروي الأخت مارانا أنّ فكرة النشيد بدأت باتصال تلقّته من إدارة «تيلي لوميار»، حيث عُرض عليها تلحين نص كتبه الدكتور أنطوان سعد لمناسبة تطويب البطريرك الحويّك.

وتقول: «عندما قرأت النص أحببته كثيراً، لأن الكلام ليس عادياً، بل يحمل عمقاً وروحانية. لكنني كنت متخوفة من ضيق الوقت، خصوصاً أنّني كنت منشغلة بالتعليم والتمارين ومنتدى فيلوكاليا. لذلك انتظرت الليل، وبعد منتصف الليل بدأت العمل على اللحن، لأنني أحب أن أكون هادئة وأصلي قبل تلحين أي عمل».

وتوضح أنّها أرادت أن يكون اللحن قريباً من الناس، يحمل طابع النشيد والترتيلة في آن، فيه تمجيد وفرح وإيقاع واضح، مع تكرار يساعد المؤمنين على حفظه والمشاركة به.

وتضيف: «أردت أن يصل هذا النشيد إلى الناس في هذه المرحلة القريبة من التطويب، عبر التلفزيون والإذاعات، وأن يكون تحية محبة للبطريرك الحويّك، فنحن نطلب صلاته للبنان، ونحيّي كل البطاركة الذين حملوا صوت الكنيسة ورسالتها».

وعن النص الذي كتبه الدكتور أنطوان سعد، تعبّر الأخت مارانا عن إعجابها بالمعاني التي حملها، معتبرة أنّه نص يرفع قيمة لبنان والرجاء.

وتقول: «أشكره لأنه كتب كلاماً يتحدث عن الهوية، عن الأرض، عن الرجاء، وعن روح البطريرك الحويّك. أكثر ما أحببته هو انتقاله إلى شخص البطريرك وروحانيته، وإلى الغنى الذي عاشه بالله، وكيف استطاع أن يجعل قلبه كبيراً وعميقاً».

وتشير إلى أنّ العبارة المتكررة في النشيد: «صلِّ لأجلنا إلياس بطريركنا» تحمل معنى كبيراً، لأن حياة البطريرك كانت صلاة وعطاءً وتسليماً لله.

«فيلوكاليا»... حين يصبح الجمال رسالة

من النشيد الذي يحتفي بشخصية روحية ووطنية، تنتقل الأخت مارانا إلى الحديث عن «فيلوكاليا»، المؤسسة التي أصبحت عنواناً لالتقاء الفن بالإيمان.

وتوضح أنّ دير راهبات الزيارة يعود إلى نحو ٤٠٠ سنة، وأنّ «فيلوكاليا» تأسست كرسالة متجددة ، واضعةً الفنون والموسيقى في خدمة التبشير والتعليم والتنشئة.

وتشرح أنّ كلمة «فيلوكاليا» تعني باليونانية «حبّ الجمال»، وأنّ هدفها نشر طاقة الحب والجمال من خلال الفنون، لأن الفن قادر على تنمية الإنسان فكرياً وروحياً وإنسانياً، ويساعده على اكتساب المسؤولية والانضباط.

من الموسيقى إلى الثقافة... رسالة تتخطى الفن

تؤكد الأخت مارانا أنّ «فيلوكاليا» لا تختصر رسالتها بالموسيقى، بل تضم مجموعة واسعة من النشاطات، منها مهرجان «دار الميلاد»، و«دار العود» المعني بالموسيقى الشرقية، والصالون الأدبي، وورش العمل الموسيقية، إضافة إلى «منتدى فيلوكاليا للفكر اللبناني».

أما المعهد، فيهتم بتنشئة الأطفال والشباب في مجالات متعددة، من الموسيقى المارونية المقدسة والموسيقى العالمية، إلى الرسم وفن الأيقونة والزجاج الملوّن، والمسرح والرقص والروحانية والثقافة، وصولاً إلى فنون الطهو المرتبطة بالتراث اللبناني.

وتقول: «كل شيء في الحياة هو فن، حتى طريقة العيش».

الكورال... مدرسة للالتزام وبناء الإنسان

وترى الأخت مارانا أنّ الكورال الكبير هو «قلب فيلوكاليا»، لأنه ليس مجرد مجموعة غنائية، بل مساحة لتربية الإنسان.

وتوضح: «الكورال هو مجتمع صغير يشبه المجتمع الكبير، يتعلم فيه الشباب الإصغاء والعمل الجماعي والمسؤولية. عندما يقفون على المسرح، يكونون قد تعلموا الالتزام والانضباط واحترام الآخر».

وتشير إلى أنّ الأعمال الفنية التي تقدّمها الجوقة تجمع بين الموسيقى والأوركسترا والرقص والفنون البصرية، وتخلق مساحة لقاء بين مختلف مكوّنات المجتمع اللبناني.

وتستعيد مثال حفل تكريم الفنان زكي ناصيف، الذي أعاد من خلاله الشباب اكتشاف حب الوطن والبيت اللبناني والطبيعة والهوية الموسيقية اللبنانية.

منتدى فيلوكاليا للفكر اللبناني... من الذاكرة إلى المستقبل

وعن المنتدى، تقول الأخت مارانا إن الهدف كان ألا تبقى رسالة «فيلوكاليا» محصورة بالفن، بل أن تمتد إلى الفكر والحوار.

وتوضح أنّ المنتدى أُطلق بالتعاون مع الأستاذ هنري زغيب والأستاذ سهيل مطر، بهدف إعادة قراءة التجربة اللبنانية بعيداً عن الانقسامات، وتعزيز الحوار بين الأجيال، وربط الخبرة السابقة بحيوية الشباب.

ويضم المنتدى ١٢ حلقة تناقش قضايا الهوية اللبنانية، التاريخ، الدولة، الشباب، الثقافة، الاقتصاد، والنهضة اللبنانية، وصولاً إلى رؤية «لبنان ٢٠٥٠».

وعن اختيار هذا العنوان، تقول: «لا يمكن بناء وطن أو فكر خلال فترة قصيرة، خصوصاً بعد الأزمات والحروب. نحن بحاجة إلى مصالحة مع الذات ومع الآخر، وإلى بناء مستقبل يحمل الرجاء».

الإعلام شريك في إيصال الرسالة

تشدد الأخت مارانا على أهمية الإعلام في نقل هذه المشاريع إلى الناس، مشيرة إلى التعاون مع وسائل إعلامية عدة، وإلى أهمية دور تلفزيون لبنان باعتباره جزءاً من الذاكرة الوطنية.

وتقول: «الإعلام هو صوت الحق، ونحن بحاجة إلى أن نبني بعضنا البعض، فكل مشروع جميل يحتاج إلى من ينقله إلى الناس».

الإيمان... قلب «فيلوكاليا» وروح الرسالة

في ختام اللقاء، تتحدث الأخت مارانا عن حضور يسوع في حياتها وفي رسالة المؤسسة.

وتقول: «أنا أسلّم كل شيء للرب الاله، لأنه من دون محبته لا يمكن أن توجد هذه الطاقة والعطاء. الصلاة هي بوابة الرسالة اليومية».

وتشير إلى أنّ الحياة الروحية في «فيلوكاليا» تقوم على الصلاة والقداس والمرافقة الروحية ودراسة اللاهوت والليتورجيا، مؤكدة أنّ الإيمان هو الأساس الذي يعطي لكل عمل معناه.

وتختم برسالة تختصر رؤيتها:

«أتمنى أن تكون فيلوكاليا مثل البخور؛ يصعد وينشر عطره في كل مكان. نريد أن نكون رائحة طيبة تحمل الجمال والمحبة والرجاء».

كما تؤكد أنّ رسالة المسيحي، كما ترى، هي أن يفتح ذراعيه للإنسان، لا أن ينغلق، لأن المسيح جاء ليعيد صورة الله إلى وجه الإنسان، ومن هنا أهمية أن يكون لبنان مساحة انفتاح ولقاء.

مريم جمّال

وانتَ الشفيع

بلغتَ الضياءَ بمجدٍ رفيع
فصرتَ الرجاءَ وفوَحَ الربيع
أردتَ الهويّة لأرضٍ ابيّة
لتبقى الرعية وينجُو القطيع

صلِّ لأجلنا الياسَ بطريركنا
لأنتَ الصلاةُ وأنت الشفيع

سكنتَ الرياحَ وانتَ الخشوع
وكنت الصباحَ بليل الدموع
وبتَّ الحماية وعينَ الرعاية
وخبزَ العناية لشعبٍ يجوع

صلِّ لأجلنا الياسَ بطريركنا
لأنتَ الصلاةُ وأنت الشفيع

غنيٌّ ... وربُّك نعمَ المَعين
كبيرٌ... وقلبُك فيضٌ ثمين
قرأتَ الديانة كياناً، فكانَ
وكنتَ الضمانة وتبقى الأمين

صلِّ لأجلنا الياسَ بطريركنا
لأنتَ الصلاةُ وأنت الشفيع

شعر: **انطوان سعد**
لحن: **الأخت مارانا سعد**